

الاستجابة للضغط الشعبي بدلا من المؤامرات والانقلابات والحروب الأهلية

ناهض منير الرئيس

النائب عن مدينة غزة

من حق جميع العرب والمسلمين - لا سيما المسؤولين وأصحاب القرار - أن يتخوفوا من الآتي . لأن القوى التي تألبت علينا وأعلنت حربها على الأوطان تحت عنوان الحرب على الإرهاب هي قوى هائلة . وهي جادة في طلب الجميع . غير أن الخوف الذي يشل التفكير ويربك الحركة جريمة مضاعفة في هذه الحالة . إنما الخوف المشروع هو ذلك الذي يدفع العقل والجوارح جميعا إلى العمل واتخاذ ما يقابل الأخطار الماثلة والكامنة من إجراءات الاحتياط والاستعداد للمواجهة . والمحزن أن المرء لا يلاحظ وجود هذا النوع من ردات الفعل المطلوبة ، بل على العكس : فالكثير من الأنظمة تبدو (مضبوعة - كما تقول العامة -) .

و (المضبووع) - عافاكم الله - هو الإنسان الذي يلاقيه الضبع في البرية ، ويأخذ هذا الوحش يحوم بطريقته المعروفة حول هذا الإنسان جينة وذهايا ، ويزداد اقترابا منه في كل مرة ، مما يؤدي بالإنسان إلى نوع من الذعر والتشوش وفقدان التركيز ، فيختلط عليه الاتجاه ، وينتهي به الحال إلى أن يربط حركته بحركة الوحش . وتقول الأسطورة الشعبية إنه يصبح مسحورا فيلحق بالوحش إلى حيث يذهب ولو إلى حفرة أو جحر .

والعقدة المستعصية في هذه المنطقة أن الضبع يلاقي الأنظمة فرادى ، وأنها أبدا سرمد لا تريد أن تجتمع ولا أن ترص بنيانها بعضه مع بعض ولو بغرض أن تكبر اللقمة على فم الضبع فيصعب عليه ابتلاعها فينصرف خائبا . فكأن افتراس الضبع إياها أهون عليها من وحدتها أو اتحادها . وقد بحث الأصوات المنذرة بالمخاطر والداعية إلى اليقظة والمنادية بالاستجابة للطوارئ ، بينما المضبوعون يهرولون فرادى وراء الضبع . ومن الأنظمة من يخبئ رأسه كالنعامة حين تشعر بالخطر . ومنهم من يتجاهل ما يحدث كأنه لا يعنيه . وهذا كله يجري بينما جموع الناس في المنطقة تضج بالمشاعر الغاضبة والسخط والتباعد عن الحاكمين بل وتخوينهم في اللغظ اليومي الذي يدور بين الناس دون توقف .

هل يستغرب أحد ؟

ودون توقف أيضا يواصل الحكام تسيير الأمور بلا تغيير أو تبديل . ومع اشتداد المخاطر يزدادون حرصا على التمترس وراء مواقفهم السلبيّة الانعزالية كي لا يتهمم الأعداء بأنهم يفكرون - مجرد تفكير - في الاستنفار . وفي الأسبوع الماضي قرأنا في الأخبار أن عمرو موسى أمين عام الجامعة العربية هدد بالاستقالة من منصبه . ويمكننا طبعا أن نتخيل الأجواء التي عاشها وعانها وأوصلته إلى ذلك . وأهم استنتاج من هذا أن الدول العربية في وضعها الراهن غير قابلة لعمل مشترك حتى في أضيق الحدود الدنيا التي حرص واضعو ميثاق الجامعة على صياغته ضمنها . وميثاق الجامعة العربية يرجع عهده إلى أربعينيات القرن الماضي ، أي أن أكثر من ستين سنة مرت عليه فلم يتطور ولم يطور الدول العربية إلى درجة أفضل ولم يحل دون وقوع النكبات والمآسي التي أصابت الأمة ، وأولها نكبة فلسطين . وفي هذه الأثناء شهد العالم نشوء اتحادات ناجحة ومتطورة كالاتحاد الأوروبي ومنظمة الوحدة الإفريقية وإعادة توحيد ألمانيا ، كما شهد قفزات التنمية في بلاد كبرى كالصين والهند . أما منطقتنا العربية والإسلامية فازدادت دولها تقوقعا وتنافرا ، وأكثر من ذلك ازدادت تعاديا وصل إلى اقتراف جريمة الاقتتال على حساب أولاد الناس وأموال الناس واستنزاف الموارد الذاتية طوال ثلث القرن الأخير . وهنا نكرر الإشارة التي اعتدنا التنويه عنها وهي أن جميع بلدان المنطقة ، بلا استثناء ، من المحيط الأطلسي إلى جبال الهند ، انخرط كل جار فيها بحرب مع جاره الأقرب دون أن تترتب على هذه الحروب أية نتائج غير استنزاف قوى الجميع .

هل يستغرب أحد اليوم ظاهرة مثل ظاهرة القاعدة أو غيرها من المبادرات التي تقوم بها أوساط شعبية خارج نطاق الشرعية في كل بلد (أيا كان رأينا فيما تقوم به ، لأن الذي نتكلم عنه ليس كونها على صواب أو على خطأ ، وإنما كونها البديل الانفعالي المحتوم للعجز والسكون الذي تبديه الأنظمة) ؟ وهل يستغرب أحد إذا شهدت السنوات القادمة تفريخ أعداد متزايدة من مثل

هذه المنظمات ؟ وهل يستغرب أحد إذا تربعت هذه المنظمات على عرش الضمير الشعبي والرأي العام الصامت ولقيت التأييد والدعم والمساندة وجميع أنواع الانحياز إليها من قبل الغالبية العظمى من الناس ؟

الشيخ الصومالي يقول

فلا دعايات الحكام لصالح أنفسهم بواسطة الإذاعات والتلفزيونات والصحف ورفع الأعلام وعزف السلام الوطني ، ولا التلهيات بالمسابقات ذات الجوائز والعروض المختلفة ، ولا القوانين التي تحظر شتم الحكام قادرة جميعها على تغيير الاقتناع الشعبي بعجز أولياء الأمور دون مبرر وبمسؤوليتهم التاريخية الخطيرة عن هذا العجز الظاهر المخزي .

ومن الناحية الأخرى ، لا جولات المبعوثين البريطانيين والأمريكيين في المنطقة ، ولا ماكينه الدعاية الأمريكية وأقمارها الاصطناعية ، ولا تهديد الرسميين الأمريكيين بأن من ليس معهم فهو ضدهم كفيلة بتخويف الناس أو بالأحرى إقناعهم أن طلاب الحقوق إرهابيون وأن الذين ينهبون الأوطان والموارد بقوة الأساطيل الجوية والبحرية حمانم بيضاء محبة للسلام .

المنطقة مدفوعة بقوة نحو التفجر ، لسبب واضح كل الوضوح ، وهو مبلغ الظلم الفادح الرهيب الآخذ في التزايد على كاهل الجميع ، والذي تنوء به أكتاف الأجيال الشابة بخاصة . ومن ذا الذي كان يتوقع (مثلا) العملية المزدوجة في ممباسا ؟ وكيف تحولت الاتهامات من إصاق التهمة بالفلسطينيين تارة ؛ وبالقاعدة تارة ؛ حتى رست بواسطة المحققين الإسرائيليين والأمريكيين على اتهام تنظيم في الصومال نسمع عنه لأول مرة ، ويدعى الاتحاد الإسلامي ؟ وهل يستطيع مراقب سياسي منصف وموضوعي أن يتجاهل نبرة الصدق في تصريح الشيخ الصومالي علي شيخ محمود الذي قال لدى استصراحه تعقيبا على العملية : ((أشعر بالأسف البالغ لما حدث ولكن مثل هذه الأعمال لن تتوقف إلى أن تتوقف شرائح من المجتمع الدولي عن تجاهل حقوق الشعوب التي تعاني من القمع .)) ، ثم أضاف : ((لا يمكن أن يهمل أحد حقوق المسلمين في هذا العالم)) .

إذا كان حقا إن الشباب الذين قاموا بالعملية في ممباسا صوماليين حسب اقتناع الأمريكيين ، فربما تكون هذه مناسبة جديدة تدعو الولايات المتحدة لتفحص سياسات الظلم والقمع الواقعة على أهالي المنطقة كلهم ، والتي تدفع شبانا في عمر الزهور هناك في منطقة القرن الإفريقي أن يفضلوا الموت على الحياة مثلما فعل شبان مثلهم في فلسطين ومثلما سيفعل آخرون في طول المنطقة وعرضها .

ظلم ذوى القربى

بيد أن الرسمية العربية ساكنة على حالها سكون المستنقع ، وإذا ما بدت على وجه المستنقع خضرة أو نضرة فتلك هي الطحالب الفاسدة . والولايات المتحدة ليست في وارد مراجعة سياساتها . بل هي على العكس مصممة على مضاعفة ظلمها واضطهادها والتوسع في إصاق تهمة الإرهاب بمن تشاء ، دون أن تشرح المعيار الذي ترجع إليه عندما تتهدد بلدا كالعراق بالحرب وبالشر المستطير وذلك . كما تدعي . في إطار حربها ضد ما تدعوه الإرهاب .

والحقيقة التي يتحدث عنها حتى الكتاب الأمريكيون في صحف أمريكية هي أن أمريكا تريد أن تهب نفط العراق كما نهبت وتستمر في نهب نفط الخليج والمغرب العربي . وهم يشيرون إلى أن العراق يسبح فوق ثاني أضخم احتياطي نفطي في العالم (بعد نفط السعودية) . ولكن الولايات المتحدة تتعلل بأن العراق يصنع أسلحة دمار شامل . وعلى الرغم من قيام العراق بنفي هذه (التهمة) ، فإن المواطن العربي لا يفهم أصلا لماذا يكون اقتناء سلاح الدمار شامل حراما على دولة تملك احتياطا نفطيا يجعل منها

مطمعا جديا للآخرين في حين يكون حلالا زلالا لإسرائيل . ومن أغرب الغرائب وأحط الانحطاط أن يسأل أحد الصحفيين السيد ((محمد)) البرادعي هذا السؤال ، فيكون الجواب : إن إسرائيل لم تستخدم سلاح الدمار الشامل ضد أحد (بينما العراق استخدمه) . وفات البرادعي أن الولايات المتحدة التي أوفدته هي الدولة الوحيدة في التاريخ التي استخدمت أشد أسلحة الدمار الشامل فتكا وهي القنابل الذرية التي ضربت بها هيروشيما وناجازاكي في الحرب العالمية الثانية . وأمريكا التي تجعل من اقتناء أسلحة الدمار الشامل تهمة ، وتجعل نفسها مدعيا عاما ضد من تتهمهم (وهم العراق العربي ، وإيران المسلمة ، وكوريا الشمالية المتهمه ببيع أسلحة للعرب والمسلمين) ، أمريكا هذه هي التي تخزن أضخم ترسانة من أسلحة الدمار الشامل . أما إسرائيل فلم يكلف البرادعي نفسه عناء التحقيق في الدعاوى العلنية التي تفوه بها مسؤولون فلسطينيون قالوا علنا إن إسرائيل استخدمت ضد الصبية الفلسطينيين المتظاهرين قذائف محشوة باليورانيوم المستنفذ . فما أشنع ظلم ذوي القربى .

نحو سياسة آسيوية تحقق التوازن

هل بقي في الوقت الراهن ما يمكن عمله ، إسلاميا وعربيا وفلسطينيا ، بعد أن شخصنا الواقع هذا التشخيص ، وبعد أن نفضنا اليد من الآمال التي ظلت تراودنا ، بأن يصبح وضوح الصورة الدولية إلى هذا الحد دافعا للرسمية العربية كي تستحي على دمها وتفعل شيئا يحافظ على السلامة الإقليمية للجميع على أقل تقدير .

أعتقد أن الضغوط من جانب الجماهير الشعبية التي اختزنت قدرا كبيرا من الوعي ومن الغضب معا هي الوسيلة الوحيدة المتبقية لدفع الدول العربية إلى أحد مسلكين :

* إما إقامة اتحاد فيديرالي عربي ، يوحد المالية المركزية والقوات المسلحة والسياسة

الخارجية والإعلام والسياسة النفطية بخاصة .

* أو تطوير ميثاق الجامعة العربية بحيث يلغى البند الذي يجعل الدول الأعضاء غير

ملزمة إلا بالقرارات التي توافق عليها . ويجب في الوقت نفسه تنفيذ المقررات

التي سبقت الموافقة عليها ، لا سيما ميثاق الدفاع المشترك والسوق العربية المشتركة .

وعلى الرسمية العربية أن تفهم أن استجابتها للضغوط الشعبية ستكون أفضل بكثير من

الانتظار البليد والأبله حتى تأتي الانقلابات والمؤامرات والحروب الأهلية التي تنذر بتعريض المجتمعات العربية للهزات والاستنزافات الكريهة مثل ما هو حاصل منذ سنوات عديدة في الجزائر . فقد بلغ السيل الزبى . وإذا كانت الغضبة قد حركت عناصر في الصومال ، فما بالك بحال الأشد تشبعا بالغضب

ووسط هذا الموقف الدولي الذي يحيط بالعالم العربي والإسلامي يتساءل المرء : أليس بوسع عالم عربي إسلامي متحد ، ولو بالحد الأدنى من الاتحاد ، أن يعود إلى التواجد بقوة أعظم ، كما فعل ذات يوم بحيث تلتئم القوى الإفريقية المستقلة مع معسكرها الطبيعي العالم الإسلامي ؟

وهل تستطيع الولايات المتحدة مع وجود سياسة نفطية عربية موحدة ، أن تقنع روسيا ، مثلما حدث في آخر مقابلة بين بوش وبوتين ، أن الولايات المتحدة أقدر على ضمان تنفيذ العقود التي أبرمتها موسكو مع بغداد من الحكومة العراقية الحاضرة ومن حكومات المنطقة كلها ؟

وآلا يستطيع عالم عربي - إسلامي متحد أن ينهي التوتر والحرب غير الضرورية بين الهند والباكستان وينهي التوتر القائم في جنوب غرب الصين بين سكان الجمهورية المسلمين وبين حكومتهم المركزية ، والخاصة تشكيل سياسة آسيوية توازن الحلف القائم بين الولايات المتحدة وبين أوروبا (على كره من أوروبا) ؟

أسئلة بمثابة مقدمات ، للإجابة في الاثنين القادم على الأسئلة التي أثارناها حول : ما العمل ؟ فإلى الأسبوع القادم .

